بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فيقول الله -تبارك وتعالى -في هذه السورة الكريمة سورة البقرة:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (258)

مُناسبة الآية لِمَا قبلها: لَمَّا ذكَر الله تعالى أنه يُخرِج الذين آمَنوا من الظُّلماتِ إلى النُّور، وأنَّ الطَّاغوت يُخرِجون الذين كفروا من النُّور إلى الظُّلمات، ساق ثلاثةَ شواهدَ على ذلك، هذا أوَّلُها وأجمعها؛ لأنه اشتَمَل على ضَلالِ الكافر، وهُدى المؤمن؛ فكان هذا في قوَّة المِثال (ابن عاشور) فقال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ) أي: ألم تَنظُر يا محمَّد، بقلبك مُتعجِّبًا من هذا المِلك الذي خاصَم إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام، وناظَرَه في وجود ربِّه وربُوبيَّته وأُلوهيَّته؟ هل رأيتَ أحدًا مِثْله يُنكِر أن يكون ثَمَّ إلهٌ غيره؟ وما حمَله على هذا التجرُّؤ والتجاهل والمحاجَّة فيما لا يَقبَل الشكَّ، إلَّا طغيانُه وتجبُّره؛ بسبب تملُّكه على رعيَّته مُلْكًا لا يُنازِعه أحدٌ فيه لمدَّةٍ طويلة، فاستكبَر وبغى، فأَنكَر وجودَ العليِّ الأعلى. موسوعة التفسير

(أَلَمْ تَرَ) أي: بقلبك يا محمد.

(إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ) هذا الذي حاج إبراهيم في ربه وهو ملك بابل: نمروذ بن كنعان.

قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران: نمروذ بن كنعان وبختنصر. فالله أعلم (تفسير ابن كثير).

قال القرطبي: هو النُّمْروذ بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح مِلك زمانه وصاحبُ النار والبَعُوضَة! هذا قول ابن عباس ومجاهد وقَتادة والرّبيع والسُّدِّي وابن إسحاق وزيد بن أسلم وغيرهم.

⇦هذه القصة ستكون مثلاً للمؤمن والكافر اللذين تقدّم ذكرهما في الآيات السابقة، الله ولي الذين آمنوا والذين كفروا أوليائهم الطاغوت.

فبعدما أخبرنا الله أنه ولي الذين آمنوا، وكيف يؤيدهم ويسددهم ويرزقهم العلم النافع والعمل الصالح، ويدلهم على طريق الجنة ويثبتهم، أيضا سبحانه أخبرنا عن الكفار الذين أوليائهم الطاغوت، كيف أعموا بصرهم وبصائرهم، وأضلوهم عن السبيل، وزينوا لهم سوء أعمالهم، فتكبروا وتجبروا على الخلق، حتى وصل بهم طغيانهم الى التكبر على الخالق فأنكروا وجوده وفضله ونعمه.

(إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ) (فِي رَبِّهِ) أي: في وجود ربه.

وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره كما قال بعده فرعون لملئه (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك؛ وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ) قوله تعالى (فِي رِبِّهِ) الضمير يعود على إبراهيم.

إبراهيم الخليل υ قام بدعوة النمروذ إلى التوحيد، فهو إمام الموحدين المخلصين، وهذه أعظم الولاية من الله، يخرج أوليائه من الظلمات الى النور، ويرزقهم العلم عنه وعن شرعه ودينه.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) النحل، وقال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ....)4الممتحنة

وكان من فضل الله على إبراهيم أن جعله الله إماما للناس، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل الأنبياء من بعد إبراهيم هم من نسله فهم أولاده وأحفاده، فأعلى المقامات عند الله، هو مقام الدعوة الى الله، وكل من يرد الله به خيرا، يسلك به هذا الطريق، فهذه هي الولاية الخاصة، التي ذكرت في الآيات السابقة، نرى من خلال القصص كيف يعامل الله أوليائه، وكيف يعامل أعدائه، وما هو الرزق الحقيقي، والعطاء الدال على حب الله.

عن الحسن البصري: أنه تلا هذه الآية: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) فصلت فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفة الله.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ)

(أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ) أي: لأن آتاه الله تعالى ذلك، (فتكون [أن] هنا تعليلية، وعلى هذا المعنى: أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك.

قال الشيخ ابن عثيمين: دلالةٌ على أنَّ النِّعم قد تكون سببًا للطُّغيان؛ لأنَّ هذا الرجُل ما طغى وأَنكَر الخالقَ؛ إلَّا لأنَّ الله آتاه الملْك؛ ولهذا أحيانًا تكون الأمراضُ نعمةً من الله على العبد؛ والفقر والمصائب تكون نعمةً على العبد؛ لأنَّ الإنسان إذا دام في نعمة، وفي رَغَدٍ، وفي عيشٍ هَنِيء، فإنَّه ربَّما يَطْغى، وينسى الله عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى (وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ....)74التوبة.

وقال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) (6-7) العلق.

وقال تعالى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ....) (83) الإسراء.

وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ)27الشورى.

⇦فهذا دأب الإنسان، يبدأ في الطغيان إذا رأى نفسه مستغنياً عن الناس.

وقال تعالى (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) هود.

وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) الأنفال.

وقال تعالى (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) (8) الزمر.

وفرعون لما أغناه الله وملّكه مصر قال (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) الزخرف.

وقارون لما أنعم الله عليه قال (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي....)78القصص.

وقال ε (لكل أمة فتنة وفتنة أمتي بالمال) رواه الترمذي.

وعن عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ وَهُوَ حَلِيفُ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ε (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ε بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ فَقَدِمَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ وَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَوْا صَلاَةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ε فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ε انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ε حِينَ رَآهُمْ ثُمَّ قَالَ « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ ». قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَ اللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ) متفق عليه.

وقال ε (ما ذِئبانِ جائعانِ أُرْسِلا في غنَمٍ ، بأفسدَ لَها من حِرصِ المرءِ علَى المالِ والشَّرَفِ لدينِهِ) صحيح الترمذي.

قال ابن رجب: هذا مثل عظيم ضربه النبي ε لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم، قد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها.

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا.

إذا أكرمت الكريم ملكته وإذا أكرمت اللئيم تمرداً

إن الإغراقَ في التَّرَف يُورِثُ غُرورًا واستِعلاءً وظلمًا وبطشًا، ويجُرُّ إلى تكذيبِ الحق ورفضِ قبولِه،﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾(سبأ: 35).

وقد ينسَى المترَفُ فضلَ الله وأنه المعطِي المتفضِّل؛ فهذا صاحبُ الجنَّتين يقولُ لصاحبِه بكِبرٍ:﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾(الكهف: 34)، نسِيَ حالَ الدنيا ومآلَها، وسُنَّةَ الله فيها،﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾(الكهف: 35)، بل نسِيَ القيامةَ والساعةَ وجزاءَ الله

العاجِل،﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾(الكهف: 36).

قال سلمة بن دينار (كل نعمة لا تقربك من الله عز وجل فهي نقمة).

قال سعيد مصطفى ذياب: لو لم يكن في حرص الإنسان على الرئاسة والملك، والسعي في الوصول إليهما بكل سبيل إلا الاتصاف بالكبر عند الأعم الأغلب لكفى هذا الأمر في النفرة عنهما، بل والفرار منها.

فإن لهذا المنصب سحرٌ عجيبٌ على من تولاه، ولهذا حَذَّرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من السعي إليه، والحرص عليه؛ فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا». رواه مسلم

وبِدَايةُ النَّقْصِ عِنْدَ مَنْ حَرَصَ عَلَى الإمارةِ ألا يرى إلا نفسه، ولا يسمع إلا صوته، ولا يعجبه إلا رأيه، كما قال تعالى:﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾سورة غافر: الآية/ 29

ويرى أنه استحق أن يكون الأوحد الملهم بملكه ورئاسته، كما قال تعالى:﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾سورة الزخرف: الآية/ 51

ثم يؤول أمره إلى منازعة الله تعالى في سلطانه، بمحاربة شرعه، فيستحسن ما قبحه الله، ويقبح ما استحسنه، كهذا الذي حرم الصيام بدعوى أنه يؤثر على الإنتاج، وهذا الذي يدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة في الميراث، وهذا الذي يدعو إلى الثورة على النصوص المقدسة.

ثم يستمرئ الكبر حتى ينكر وجود الله تعالى كهذا﴿ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾، وهذا الذي قَالَ لِوَزِيرِهِ:﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾سورة غَافِرٍ: الْآيَة/ 36، 37

ونسي أنه مخلوق صغير، وعبد ذليل، ومهما بلغ غناه فهو إلى الله فقير، حتى تنزل بساحته المنية، ويعاين سكرات الموت، فيندم ولات حين مندم، ويسأل الرجعة ولات حين مناص.

(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت) أي: ألم ترَ- يا محمَّد- إلى ذلك المحاجِج في أمرِ الربِّ عزَّ وجلَّ، حين أخبَره إبراهيمُ عليه الصَّلاة والسَّلام بدليلٍ يُثبِت وجودَ الربِّ ورُبوبيَّته وأحقِّيَّته وحده بالعبادة؛ فهو الخالق المالك المدبِّر، المنفرِد بأنواع التصرُّف، وقد ذكَر إبراهيمُ منها على سبيل الخصوص: الإحياءَ والإماتةَ، وهي مِن أعظم أنواع التَّدابير التي لا يَقدِر عليها أحدٌ سوى الله تعالى، فيُحْيِي ما كان ميتًا ممَّا يَشاء مِن خَلْقه، ويُميتُ مَن أراد إماتتَه من الأحياء، فحدوثُ هذه الأشياء المشاهَدة بعد عَدَمِها، وعدمها بعد وجودها- دليلٌ قاطِع وواضحٌ على وجود الفاعل المختار؛ لأنَّها لم تَحدُث بنفسها، فلا بدَّ لها من مُوجِدٍ أَوجَدَها، وهو الربُّ الذي دعا إبراهيمُ إلى عبادته وحده لا شريكَ له، فحينها ردَّ عليه الملِك مُستكبِرًا ومُوهِمًا

بأنَّه يَملِك فِعْلَ ذلك أيضًا، غير مُنكِر أنَّ الله تعالى يفعله؛ إذ لم يَقصُر الأمرَ على نفْسه، التي ادَّعى لها هذا المقامَ عنادًا ولَجاجًا بالباطل، مُدَّعيًا أنَّ استبقاءه مَن أراد قتْله، إحياءٌ منه له، وقتْلَه لآخَر إماتةٌ له. موسوعة التفسير

(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم. ابن كثير

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) أي: الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة، لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. ابن كثير

فعند ذلك قال المحاج –وهو النمروذ:

(قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة.

قال ابن كثير: والظاهر –والله أعلم–أنه ما أراد هذا، لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يَدّعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي).

(قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) أي: لَمَّا أصرَّ هذا الكافرُ على المغالطةِ والمكابَرة، ردَّ عليه إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام من خلال ما زعَمه، بأنَّه إنْ كان حقًّا صادقًا في دعواه بأنَّه يَملِك القُدرةَ على الإحياء والإماتة؛ فإنَّه ينبغي أن يكون قادرًا كذلك على التصرُّف في الوجودِ كتسخير كواكبه، قائلًا: هذه الشَّمس الظَّاهرة للعِيان يُحرِّكها اللهُ الذي أَعبُده، فيأتي بها كلَّ يوم لتَطلُع من جِهة المشرِق، فإن كنتَ إلهًا تُحيي وتُميت كما تَزعُم، فاجعلْها تَطلُع من جِهة المغرب. موسوعة التفسير

(قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) أي: إذا كنت كما تدعي من أنك أنت الذي تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب. ابن كثير.

قال العلماء: إن هذا ليس من باب الانتقال من دليل إلى دليل آخر أوضح، وإنما هو من باب طرد الدليل، فكأنه قال له: ما دام أنك أنت تحيي وتميت، وأنت تملك هذه القدرة الهائلة، فأنت الذي تتصرف في هذا الكون فأت بالشمس من المشرق.

(فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) أي: لَمَّا عَلِم هذا المحاجِجُ عجزَه وانقطاعَه عن الإدلاء بحُجَّة–إذ لا قِبَل له بإيراد شُبْهة تُشوِّش دليلَ إبراهيم عليه السَّلام، ولا عَرْضِ قادحٍ يَقْدَح فيه–تَحيَّر واندهش، فأُخرِس مغلوبًا، وبَطَلت

حُجَّته، وقامت عليه حُجَّة الحقِّ. موسوعة التفسير

(فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) أي: فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة.

إن الله الذي أعبده يأتي بالشمس من المشرق، فهل تستطيع تغيير هذه السُّنَّة الإلهية بأن تجعلها تأتي من المغرب؛ فتحيَّر هذا الكافر وانقطعت حجته، شأنه شأن الظالمين لا يهديهم الله إلى الحق والصواب. التفسير الميسر

قال القرطبي: كان إهلاكه لما قصد المحاربة مع الله تعالى بأن فتح الله تعالى عليه باباً من البَعُوض فستروا عين الشمس وأكلوا عسكره ولم يتركوا إلا العظام، ودخلت واحدة منها في دماغه فأكلته حتى صارت مثل الفأرة؛ فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عَتيدَة لذلك، فبقي في البلاء أربعين يوماً.

قال الله تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) إبراهيم وقد قص الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآلة وسلم الكثير من قصص المستكبرين على الله في الأرض وكذلك الظالمين والجبارين والطغاة والمترفين وكيف كانت نهايتهم وسوء خاتمتهم، فرعون وهامان وقارون وكيف أغرقهم الله وخسف بهم الأرض فكل من استكبر على الله وتطاول على عباده كان مصيره الخزي في الحياة الدنيا، وعذاب شديد وأليم وعظيم يوم القيامة.

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أي: إنَّ الله تعالى لا يُوفِّق أهلَ الباطلِ الذين ظلموا أنفسَهم بإيثارهم الكُفْرَ على الإيمان، بل يُبقِيهم على كُفْرهم وضَلالهم، ولو كان قَصْدهم الهدايةَ إلى الحقِّ، لوفَّقهم ويسَّر لهم الوصولَ إليه، فحُجَجهم باطِلة، لا يُمكِن أنْ يُبطِلوا بها حُججَ أهلِ الحقِّ عند المحاجَّةوالمناظَرة.موسوعة التفسير

(وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أي: لا يهديهم في الحجة عند الخصومة لما هم عليه من الضلالة. الطبري

قال ابن عاشور: وإنّما انتفى هدي الله للقوم الظالمين، لأنّ الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلى التأمّل من الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع؛ إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره.

وهذا فيه تحذير من الظلم بجميع أنواعه، لأنه يصد عن سبيل الهدى، ويعمي البصر عن الحق.

قال الشيخ ابن عثيمين: التَّحذير من الظُّلم؛ لقوله تعالى: وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ؛ ومن الظُّلم أنْ يَتبيَّن لكَ الحقُّ فتُجادِل لنُصْرة قولِكَ؛ لأنَّ العدل أنْ تَنصاعَ للحقِّ، وألَّا تُكابِر عند وضوحه؛ ولهذا ضَلَّ مَن ضلَّ مِنْ أهل الكلام؛ لأنَّه تَبيَّن لهم الحقُّ، ولكنْ جادَلوا؛ فبَقُوا على ما هم عليه من ضَلالٍ، دلالةٌ على أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أظلمَ كان عن الهِداية أبعدَ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ علَّق نَفْي الهدايةِ بالظُّلم؛ وتعليق الحُكْم بالظُّلم يدلُّ على عِلِّيَّته؛ وكلما قويتِ العِلَّةُ قوي الحُكْم المعلَّق عليها، أنَّ مَن أخَذ بالعدل كان حَرِيًّا بالهِداية؛ لمفهوم المخالفة.

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (259)

مُناسبة الآية لِمَا قبلها: لَمَّا قرَّر بالآية السابقة ثبوتَ انفرادِ الله بالإلهيَّة، وذلك أصل الإسلام، أَعْقَب بإثبات البعثِ، الذي إنكاره أصْلُ أهلِ الإشراك ابن عاشور فقال تعالى:

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) أي: أَلَمْ تَنظُر أيضًا يا محمَّد، مُتعجِّبًا من هذا الرجل الذي مرَّ على قرية فارغةٍ، قد فَنِي أهلُها فماتوا جميعًا، وقد سقطت سُقُوفُها، وخرَّت الجِدران عليها، فخَرِبتْ أبنيتُها، فأصبحت مُوحِشةً بلا أنيس، مُقْفِرةً بلا عمارة. موسوعة التفسير

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) هذه هي القصة الثانية.

اختلف في المار: فقيل: عزير، وهذا هو المشهور. وقيل: هو رجل من بني إسرائيل.

قال ابن كثير: كان عزير عليه السلام عالما وحافظا للتوراة، اماته الله مئة عام ثم بعثه لبني اسرائيل ليعلمهم التوراة بعد أن نسوها وليجدد الدين لهم، فقد انحرف بني اسرائيل عن شرع الله عز وجل ونسو الكثير من آيات الله فأراد الله ان يبعث فيهم من يصلح احوالهم ويعلمهم دينهم.

وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها، كان عزير عليه السلام ماشيا على حماره حتى مر بقرية خاوية لا ناس فيها. قال ابن كثير

(وَهِيَ خَاوِيَةٌ) أي: ليس فيها أحد، من قولهم: خوت الدار تخوي خواءً وخُوياً. ابن كثير

(عَلَى عُرُوشِهَا) أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، ولهذا قال:(قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها. ابن كثير

أن الإنسان إذا استبعد وقوع الشيء ولكنه لم يشك في قدرة الله لا يكفر بهذا.

مر عزير على هذه القرية –وهي بيت المقدس على المشهور، بعد أن خربها بختنصر وقتل أهلها – وهي خاوية ليس فيها أحد، فوقف متفكرا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة،

(قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) أي: لَمَّا مرَّ هذا الرجُلُ بذلك الموضِع الخَرِب الذي كان عامرًا بالحياة، مأهولًا بالسُّكان، وقَف عليه مُتفكِّرًا فيما آل إليه حالُ هذا المكان، فتساءل مُستبعِدًا كيف يُمكِن عَوْد الحياة إلى ما كانت عليه سابقًا. موسوعة التفسير

(فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) أي: إنَّ الله تعالى أراد أن يُرِيَه قُدرتَه على ما استَبْعَدَه، بضرْب المَثَل له في نَفْسه، فقبَض اللهُ سبحانه رُوحَه، وظلَّ مَيِّتًا لمدَّة مئة عامٍ كاملة، ثم أحياه الله عزَّ وجلَّ، فسأله عن مدة مُكْثه في هذا المكان، فأجاب– شاكًّا– بأنَّ لُبْثه لن يعدو

يومًا كاملًا أو جزءًا من يوم، ظنًّا منه أنَّه كان نائمًا فاستيقظ، قيل: لأنَّه مات في أوَّل النَّهار وبُعِث في آخره بعد مِئة عام، فظنَّ لما رأى آخِرَ النَّهار أنَّه بقيَّة يومه الذي كان فيه حيًّا، أو أنَّه آخِر النَّهار من اليوم التَّالي. موسوعة التفسير

قال الشيخ ابن عثيمين: ثبُوتُ كَراماتِ الأولياء؛ وهي كلُّ أَمْرٍ خارِقٍ للعادة يُجريه الله عزَّ وجلَّ على يدِ أحدِ أوليائه؛ تكريمًا له، وشهادةً بصِدْق الشَّريعة التي كان عليها؛ ولهذا قيل: كل كرامة لِوليٍّ، فهي آية للنبيِّ الذي اتَّبَعه.

(قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) أي: ليس الأمرُ كما ذكرتَ، فلمْ تَمكُث يومًا أو بعضَ يوم، وإنما مكثتَ مئة عامٍ بتمامها، فلْتُشاهِد الآن خوارقَ العاداتِ الدَّالَّة على قُدْرة الربِّ عزَّ وجلَّ، فانظُرْ أولًا إلى ما بحوزتك من طعامٍ وشراب، فإنه لم يتغيَّر مُطلَقًا بمرور كلِّ تلك السِّنين، خلافًا لما جرتْ به العادة، فإنَّ الطعامَ والشَّراب من أسرع الأشياء تغيُّرًا. موسوعة التفسير

(وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ) أي: انظُر بعينَي رأسِك إلى حمارك، وقد مات وتمزَّق لحمُه وجِلدُه، وتفرَّقت أوصالُه، وبَدَتْ عِظامُه النَّخِرة؛ فانظر كيف يُحييه اللهُ عزَّ وجلَّ. موسوعة التفسير

(وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ) أي: أَمتْناك مِئةَ عامٍ، ثمَّ بعثناك لنُصيِّرك حُجَّةً ودليلًا وعلامةً مرئيَّةً على قدرة الله تعالى، القادر وحده على فِعْل ما يشاء مِن إحياء وإماتة، وعلى إثبات البعثِ من القبور يوم القيامة؛ مِصداقًا لما أَخبَرتْ به رُسلُ الله عليهم السَّلام، وذلك لمن عرَفه مِن ولدِه وقومه ممن عَلِم موته، فرأوا ذاته وتحقَّقوا صفاتِه، ولعموم النَّاس كذلك. موسوعة التفسير

(وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا) أي: انظُر عيانًا إلى تلك العِظام البالية المتفرِّقة لحمارك، وشاهِدْ كيف نُحْييها، وهي ترتفعُ من الأرض فتتَّصلُ ببعضها، فنردُّها إلى مواضعها من الجسد، ونَسترُها باللَّحمِ بعد التئامها، فأحيا الله عزَّ وجلَّ الحِمارَ بالإعادة، من بعد تَحلُّل جَسدِه.

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي: فلما اتَّضح له ما كان مُستبعِدًا وقوعه، وظهر له عيانًا، أمره الله سبحانه أن يُدرِك الآن إدراكًا جازمًا بأنَّ الذي فعَل تلك الأشياء العجيبة بقدرته، قادِر أيضًا على أيِّ شيء أراده، فلا يُعجِزه شيء أبدًا، فقال: أُوقِن مطمئنًّا الآن-أكثرَ من أيِّ وقت مضى-بقُدرةِ الله، التي ليستْ لها حدودٌ. موسوعة التفسير

قال الشيخ ابن عثيمين: أنَّه ينبغي التَّفكُّر فيما خلَقه الله عزَّ وجلَّ، وأَحدَثه في الكون؛ لأنَّ ذلك يَزيد الإيمانَ، حيث إنَّ هذا الشيء آيةٌ مِن آياتِ الله، ينبغي النَّظر إلى الآيات على وَجْه الإجمالِ والتَّفصيل؛ لقوله تعالى: وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ: مُطلَق، ثم قال تعالى: وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا... إلخ؛ فيقتضي أنْ نتأمَّل أوَّلًا في الكون من حيث العموم، ثُمَّ من حيث التفصيل؛ فإنَّ ذلك أيضًا يَزيدنا في الإيمان، بالتَّدبُّر والتَّأمُّل والنَّظر يَتبيَّن له مِن آياتِ الله، ما لا يَتبيَّن لو غَفَل؛ لقوله تعالى: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ إلخ...

قال ابن كثير في قوله تعالى : (قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) وذلك لما رأى من دثورها وشدة

خرابها، وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه (فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) فقد قبض ملك الموت روحه وهو نائم فأماته الله مئة عام، وبعد بعثه استيقظ عزير عليه السلام ليرسل الله له ملكا في صورة بشر ويسأله كم لبثتم فإجابة عزير، وفي هذا الوقت قد عمرت البلدة وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته، كان أول شيء أحيا الله فيه: عينيه، لينظر بهما إلى صنع الله فيه، كيف يحيي بدنه؟ فلما استقل سويا، قال الله له -أي بواسطة الملك المتجسد في صورة انسان -: (قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) قالوا: وذلك أنه أماته أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال (أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)، (قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ) أي: بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة،(فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) أي : فإن شككت فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغير بمرور الزمان ، وكان معه عنب وتين وعصير فوجدها على حالها لم تفسد ، لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ولا أنتن ، ولا العنب تعفن (وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ) أي : كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر،(وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ) أي : دليلاً على المعاد،(وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا) أي : نرفعها فتركب بعضها على بعض ،وركب كل عظم في موضعه حتى صار حمارا قائما من عظام لا لحم عليها،(ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً)ثم كساها الله لحما وعصبا وعروقا وجلدا، وذلك كله بمرأى من العزير،(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ)فعند ذلك لما تبين له هذا كله(قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي: أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عيانا، فأنا أعلم أهل زماني بذلك ."تفسير ابن كثير" (1/ 687-689) .

✉بعد ذلك خرج عزير الى القرية فوجد بها الناس ثم اخذ يسألهم اتعرفون عزير؟ قالو نعم لقد مات منذ مئة عام، فقال لهم: انا عزير لكنهم لم يصدقوه حتى اتو بعجوز معمرة طاعنة في السن سألوها عن اوصاف عزير فقالت لهم العجوز اوصافه وبذلك تأكد اهل القرية من انه عزير الذي قبض الله روحة ثم اعاد بعثه الى الناس ليبدأ تعليمهم التوراة وشرع الله تعالى.

لذلك عزير معظَّم عند اليهود، فزعموا أنّه ابن الله، لإنّه يحفظ التوراة، ولما رأوا له تأيد من الله.

قال سعيد مصطفى ذياب: كم من الناس سأل آية فكان هو الآية، وكم من الناس أراد عبرة فصار عبرة!

أليس فيك ما يكفيك عن البحث في الأرض والسماء؟ أليس عندك ما يردك إلى رب الأرض والسموات؟

ألم نسمع قول الله تعالى:﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: الآية/ 21

وقال الطبري: وفي الأرض عبر وعظات لأهل اليقين بحقيقة ما عاينوا ورأوا إذا ساروا فيها.

(وفي الأرض آيات للموقنين) إذا استقر اليقين بالقلب فكل ما حوله يزيده يقيناً حتى موطئ قدميه / عقيل الشمري

(وفي أنفسكم أفلا تُبصرون) قال بعض العلماء: إن فيه [خلق الإنسان] خمسة آلاف حكمة، وقال بعضهم: الإنسان نسخة مختصرة من العالم كله. ابن جُزي/ماجد الغامدي